تركيا

والمخطوطات العربية

بقلم : د. محمود الطناحى

زرت تركيا مرتين : الأولى فى شتاء عام ١٩٧١م ، والثانية في صيف هذا العام ، ويا بُعْدَ ما بين اليومين فى حياة الكاتب ، وفى عالم المخطوطات :

ففى المرّة الأولى كنت عضواً صغيراً فى بعثة معهد المخطوطات التابع للمنظمة العربية للتربية والثقافة والعلوم غداة إنشائها ، وكان هذا المعهد من قبل تابعاً للأمانة العامة لجامعة الدول العربية منذ قيامها سنة ١٩٤٥م . وفى هذه المرة الثانية كنت مدعواً من قبل مؤسسة الفرقان للتراث الإسلامى ، التى يرعاها ويدعمها معالى الشيخ أحمد زكى يمانى ، وزير البترول والثروة المعدنية السابق بالمملكة العربية السعودية ، وذلك لإلقاء محاضرات عملية فى الدورة التدريبية الثانية على تصنيف وفهرسة المخطوطات الإسلامية ، وقد دُعى إلى حضور هذه الدورة نفر من الشباب المشتغلين بالمكتبات والاستشراق ، من تركيا وألبانيا وبلغاريا وزغرب والبوسنة والهرسك ، وكاشغر (الصين الشعبية) وبعض جمهوريات آسيا الوسطى : أذربيجان وأوزبكستان ، وقازقستان وطاجكستان ، وشارك فى إلقاء المحاضرات طائفة من العلماء المشتغلين بعلم المخطوطات ، كان منهم من مصر : الدكتور عبدالستار الحلوجى ، والأستاذ نصر الله مبشر الطرازى .

ام الحسين العراقية من العراق

حسنة الطلع مجتهدة ورعة كثيرا ما تقول الحس الاعمى من رؤية الجوهر امسه
وكثيرا تقول قال الشبلي ان فاتكم الله فلا يغرنكم امره ٥

امنة المرجية متعبدة للفقرا

كانت صاحبة مشاهدة رفيعة الحال كثيرا تقول الاولياء لا تشغلهم الاكوان
ولكن تشغلهم الكائنات ٥ وكانت تخدم الفقرا فتقيم للعلم وصلاح العمران ٥

فاطمة الخانقهية من فتيان وقتها

كانت متعصبة للفقرا محبة لهم تحكي عنها انها قالت الفتوة هي القيام الى الخدمة
من غير منة ٥ حكي عنها انها قالت شهود قلوب العارفين يروحه القيان وعنها ...

عائشة بنت احمد الطويل المروزية زوجة عبد الواحد السياري رحمها الله

كانت من الافاضل المجتهدين لم يكن في وقتها احسن حالا منها ولا الطف طريقة في
التصوف انفقت على الفقرا الكرام خمسة الاف درهم بلغني ان بعض المدعين قال لها
افعلي كذا وكذا لينفع لك كشف قالت الستر اولى للنساء من الكشف لانهن
عورات ٥ وكثيرا ما تقول من لم يستلذ طعم الفقر لا يكشف له عن فضائل الفقر ٥
وقيل لها ... فلا ... قالت
اذا طلب العبد العز في عبوديته فقد اظهر رعونته ٥ تمت ... والحمد لله الرحيم الراحم
والحمد لله رب العالمين والصلوة ...

...

علي بن العبد الصعصعي
عبد السيد بن احمد الخطيب ... منه
... وكان الفراغ منه ...

وكان الفراغ منه ... بن ... حلوب

وكان الفراغ منه
يوم السبت ...
وكان النسخ ...
قاضي القضاة احمد ...
... سنة ...

مخطوطة كتاب «تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن» للبيروني – بخط البيروني نفسه سنة ٤١٦ – مكتبة الفاتح باستانبول .

■ وكذلك اختلف حال المخطوطات اليوم عن حالها بالأمس اختلافاً كبيراً ، وبخاصة في ديارنا المصرية ، ففي ذلك الزمان كانت المخطوطات في مصر مصونة متاحة ، وكان القائمون عليها والمتصرفون فيها أولي علم وبصر ، يعرفون أسماء المخطوطات في كل علم وفن ، كما يعرف الناس آباءهم ، وكانت لديهم القدرة على قراءة العَسِر المُعَمَّى من المخطوطات ، وتمييز الصحيح من الزائف، والعتيق من المحدث ، إلى معارف أخرى تتصل بهذا العلم ، كالمخطوط النادر ، ومقاييس هذه الندرة : من خطوط المؤلفين أنفسهم ، وحظوظ بعض الكتب من كثرة مخطوطاتها أو قلتها ، ومعرفة مظان المخطوطات وأماكن وجودها . وقد ذهب هذا كله ، إلا بقية خافتة الصوت ضعيفة الأثر ، ويشتد بي العجب – وقد قضيت مع هذا العلم خمسة وثلاثين عاما : ناسخاً ومفهرساً ومحققاً ودارساً – حين أقرأ لبعض الناس الآن كلاماً أخّاذاً برّاقاً عالي النبرة عن المخطوطات وسرقتها والغيرة عليها ، مع يقيني الذي لايداخله الشك أنهم لم يعانوا هذا العلم ولم يعرفوا شيئاً عن أسراره وخباياه ، فضلاً عن أنهم لم يجالسوا شيوخه وأعلامه ، وأساس العلم التلقي والمشافهة ، فهي حماسة كاذبة ، وولاء مدخول :

وكلٌ يدعي وصلاً بليلى
وليلى لا تُقرُّ لهم بذاكا

وهذا الحديث مما يطول جداً فلنتركه إلى حين ، ولنعد إلى تركيا هذا الجزء العزيز من العالم الإسلامي ، وحديث المخطوطات فيها ، وهو حديث غريب عجيب .

وقبل أن نتكلم على فضل الأتراك العثمانيين على هذا التراث الإسلامي ، بجمعه وحفظه وصيانته ، لابد من التذكير بفضلهم في نشر الإسلام بأوربا ، لأن هذا من ذاك . ومعلوم أن كلمة «تركي» كانت في وقت من الأوقات مرادفة لكلمة «مسلم» في أذهان الأوربيين الغربيين ، وكان زحف الأتراك العثمانيين على بلاد البلقان وتوغلهم فيها ، ثم اتجاههم إلى قلب أوربا، ودخول محمد الفاتح القسطنطينية وفتحها سنة ٨٥٧هـ = ١٤٥٣م ، كان ذلك كله بمثابة الضربة الثانية للمسلمين في أوربا ، وكانت الأولى يوم أن عبر المسلمون بقيادة طارق بن زياد بوغاز جبل طارق سنة ٩٢هـ – ٧١٠م ، يقول الدكتور عبدالعزيز الشناوي في كتابه القيم «الدولة العثمانية دولة إسلامية مفترى عليها» ص٤٣ «وقد نظرت أوربا إلى الفتوح العثمانية على أنها فتوح إسلامية ، وكان الأتراك العثمانيون – في تقدير أوربا – هم الرمز الحي المجسد للإسلام ، واختلط الأمر على الأوربيين في ذلك الوقت ، فكانوا يطلقون

تركيا والمخطوطات العربية

على المسلم لفظ «تركي» . وانظر بقية كلامه، فإنه عال نفيس ، ثم انظر الدويّ الهائل الذى أحدثه فتح السلطان محمد الفاتح للقسطنطينية فى كتاب شيخنا أبي فهر محمود محمد شاكر «رسالة في الطريق إلى ثقافتنا» ، واقرأ أيضاً ما كتبه المستشرق الروسى كراتشكوفسكي في كتابه «تاريخ الأدب الجغرافى العربى» ص٤٥١ ، عن أثر فتح السلطان سليم العثماني لمصر سنة ٩٢٣هـ، وأن أستانبول أخذت منذ ذلك الحين تجتذب إليها بشكل مطرد أنظار العرب الذين أخذت أوطانهم تدور فى فلك الدولة العثمانية بطريق مباشر أو غير مباشر ، وفى ذلك الوقت بالتحديد بحث البابا ليون العاشر الإيطالى مع فرنسوا الأول ملك فرنسا ، فى عام ١٥١٥م ، مشروع حملة صليبية ضد الترك العثمانيين لوقف زحفهم وتوغلهم . ثم اقرأ أيضا ما قاله المؤرخ ابن العماد الحنبلي ، فى كتابه شذرات الذهب ٨ / ١٤٣ ، فى ترجمة السلطان سليم العثماني هذا ، يقول : «هو من بيت رفع الله على قواعده فسطاط السلطنة الإسلامية ، ومن قوم أبرز الله تعالى لهم ما ادخره من الاستيلاء على المدائن الإيمانية ، رفعوا عماد الإسلام وأعلوا مناره ، وتواصوا باتباع السنة المطهرة ، وعرفوا للشرع مقداره» - ويلاحظ أن ابن العماد قائل هذا الكلام توفى سنة ١٠٨٩هـ ، فهو قريب العهد بأحداث زمان دخول السلطان سليم مصر، وأنه ولد بدمشق وأقام بالقاهرة مدة طويلة ، ومات بمكة ، فلم يكن عثمانيا يميل بهواه إلى أبناء جلدته ، ولم يدخل بلاد الروم - أستانبول وما حولها - حتى يكون له فيها حظ من جاه ، أو نصيب من نفع ، يحملانه على الثناء والمدح - فاقرأ هذا كله وتدبره ، ودع عنك ما يقال عن الغزو العثمانى لمصر أو الاحتلال العثمانى لمصر ، فهذا كله من حديث السياسة ، والسياسة دروب ومضايق ، يضيع فيها الحق ، ويضل معها الحكيم ، وهذه كلها من آفات المتابعة وعدم التحرى، على ما قال الجاحظ : «وإنما يُؤتى الناس من ترك التثبت وقلة المحاسبة» ، ولقد قال الناس وأكثروا عن أخذ السلطان سليم للصناع والمهرة من مصر ، وسلب المخطوطات ، ولقد - والله - رأيت هذه المخطوطات بعيني بالمكتبة السليمية الوطنية فى «أدرنه» بشمال تركيا، حيث مات ودفن السلطان سليم ، فرأيتها محفوظة مصونة، لم تمس بسوء .

نشاط علمي وثقافى

ومهما يكن من أمر فقد واكب نشاط سلاطين آل عثمان فى الجهاد والفتوح ، نشاط آخر فى العلم والكتب ، وآية ذلك أن كل سلطان أو صدر أعظم كان يحرص على أن يبنى بجوار المسجد مدرسة ومكتبة تابعتين له وملحقتين به ، ولما كان الناس على دين ملوكهم ، فقد اقتدى بالسلاطين فى ذلك الوزراء ومشايخ الإسلام ، وعلى ذلك ، فمجموعات

المخطوطات في تركيا تنسب إلى ثلاث طوائف: السلاطين، مثل مكتبة السلطان سليم الأول - وهي المكتبة السليمية بأدرنه التي حدثتك عنها - ومكتبات السلطان محمد الفاتح والسلطان بايزيد، والسلطان أحمد الثالث، والمكتبة السليمانية نسبة إلى السلطان سليمان القانوني - أو المشرِّع - وكلها باستانبول.

والطائفة الثانية: الوزراء، مثل راغب باشا، وشهيد علي باشا، وكوبريلي باشا. والمكتبات الثلاث باستانبول، وكوبريلي باشا هذا، هو الوزير الفاضل أحمد بن محمد، وهو من كبار الرجال في الدولة العثمانية، يقول عنه المحبي في خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادي عشر ١ / ٢٥٣ «ولم يكن في الوزراء من يحفظ أمر الدين وقانون الشريعة مثله، صعباً شديداً في أمور الشرع، سهلاً في أمور الدنيا، وكان حاذقاً مدبرا للملك، قائماً بضبطه، وملك من نفائس الكتب وعجائب الذخائر مالا يدخل تحت الحصر، ولا يضبط بالإحصاء».

قلت: وممن اتصل به من العلماء: العلامة عبدالقادر بن عمر البغدادي، صاحب «خزانة الأدب» فأكرمه وحظي عنده بمكانة رفيعة، وقد أهدى له البغدادي مؤلفه «حاشية على شرح بانت سعاد».

والطائفة الثالثة: مشايخ الإسلام، مثل: أسعد أفندي، وعاشر أفندي، وولي الدين أفندي، وعاطف أفندي، وفيض الله أفندي، وعلي أميري أفندي، ووهبي أفندي، وشيخ مراد أفندي - ومكتبته غير مكتبة مراد ملا - وكل هذه المكتبات باستانبول. وإسماعيل صائب أفندي، ومكتبته بأنقرة.

ومع هذه الطوائف الثلاث ظهرت طائفة النساء اللائي عنين بجمع المخطوطات، فأنشأن لها مكتبات نسبت إليهن، مثل مكتبة طرخان، وصالحة خاتون، وأسما خان، وجلنوش، وبرتونيال، وكثير من المكتبات التي تسمى «والده باشا» ثم تضاف إلى ابنها السلطان.

حفظ العلم

ولعل هذا التنافس في جمع المخطوطات وإنشاء المكتبات بهذا الحشد الكبير في استانبول كان مبعثه رغبة سلاطين آل عثمان والوزراء ومشايخ الإسلام، والوجهاء أن يكون لاستانبول تلك المكانة التي كانت لدمشق عاصمة الأمويين، وبغداد عاصمة العباسيين، ومصر عاصمة الفاطميين والأيوبيين والمماليك. هكذا يقول بعض الدارسين والمحللين، أما أنا فإنني أرى أن هذا كله من تسخير الله بعض عباده لحفظ العلم وبقاء الكتب، ولعل كثيراً من الذين جمعوا المخطوطات وأنشأوا لها الخزائن والمكتبات لم يخطر ببالهم عاصمة كذا وعاصمة كذا، وهل نظن أن امرأة تركية من الفضليات

تركيا والمخطوطات العربية

اللائى جمعن المخطوطات وأنشأن المكتبات كانت تفكر فى مثل هذا الذى يذكره المحللون ؟ إنها عناية الله وتسخير الله ، وكل ميسر لما خلق له ، ألست ترى بعض الكتاب الآن يكتبون فى موضوعات غاية فى الخصوصية ، ويعكفون على تحقيقات وبحوث ، لاتحقق شهرة ، ولا تجلب مالاً ، ولكنه التسخير الإلهى ، ولله فى خلقه شئون .

على أن اللافت للنظر حقاً أن المخطوطات العربية ليست توجد فى استانبول وحدها - العاصمة القديمة لتركيا - كما هو الشأن فى المخطوطات التى تقتنيها الدول ، أن تكون فى عواصمها فقط ، فإنك واجد مخطوطات كثيرة فى غير استانبول ، من أنحاء تركيا كلها شرقا وغربا وشمالا وجنوبا ، وقد أورد الأستاذ أحمد آتش فى مقالة له بمجلة معهد المخطوطات العربية (المجلد الرابع - الجزء الأول) بعنوان : «المخطوطات العربية فى مكتبات الأناضول» أورد إحصائية عن المكتبات الكائنة خارج أستانبول ، قال بعد أن أشار إلى المؤسسات العلمية فى أنحاء تركيا : «ولما اضطرت الدولة العثمانية بعد القرن السابع عشر الميلادى إلى مدافعة قسم كبير من العالم الإسلامى ضد عدوان أوربا ، طرأ على هذه المؤسسات العلمية نوع من الإهمال ، ومع ذلك فإنه قد بذل بعد منتصف القرن الماضى على عهد السلطان عبدالحميد (١٨٧٦ - ١٩٠٩) مجهود عظيم لإحياء هذه المؤسسات العلمية ، وحسب إحصاء سنة (١٣١١ - ١٣١٢) المطبوع فى استانبول من قبل وزارة المعارف ، فى سنة ١٣١٨ ، فقد ثبت أنه كان موجوداً فى المملكة العثمانية ماعدا استانبول ٢٧٢ مكتبة ، تحتوى على ٧٦٫٧٧٣ نسخة مخطوطة» ، ثم ذكر اسماء هذه المكتبات ومكانها من بلدان تركيا ، وعدد المخطوطات بها ، ثم ذكر أنه يوجد الآن فى الأناضول وضواحيها ٥٩ مكتبة ، أوردها بأسمائها وبلداتها وعدد المخطوطات بها .

وقد زرت أنا من هذه المدن ورأيت مخطوطاتها : أدرنه - بورسة - إسكى شهر - كوتاهية - أماسية - قيسارية - سمسون - قونية ، وهى بلد الصوفى الكبير جلال الدين الرومى ، صاحب «المثنوى» وبها قبره ، وبها أيضا قبر صدر الدين القونوى الفقيه الشافعى الصوفى .

وعلى ذلك فَقَلَّ أن تجد مدينة من بلاد تركيا المتراحبة الواسعة ليس بها مكتبة مخطوطات ، وهذا فرق ما بين تركيا وبين سائر الدول التى تضم مخطوطات فى عواصمها فقط ، أو مدنها الشهيرة ، كما ذكرت من قبل . وتستطيع أن تقول باطمئنان إن تركيا تعدّ أول دولة ، من حيث تجميع المخطوطات وعددها ، ولئن كان كثير من المشتغلين بعلم المخطوطات يقدرون عدد المخطوطات فى مكتبات العالم

بنحو ثلاثة ملايين مخطوط ، فإني أرجّح أن ماتضمه تركيا يبلغ نحو ثلث هذا العدد.

ومن بين مدن تركيا على امتدادها واتساعها تنفرد مدينة استانبول بثلثي التراث المخطوط في تركيا فهي بحق مدينة المآذن والمخطوطات ، وقد حدثتك من قبل عن مكتباتها المنسوبة إلى السلاطين والوزراء ومشايخ الإسلام ، وهناك مكتبات أخرى غير هذه المكتبات المنسوبة ، مثل طوبقبوسراى ، ونور عثمانية ، ومراد ملا، والبلدية، وجامعة استانبول وملّت كتبخانه، وسليم أغا بأسكودار ، في البر الآسيوى من استانبول ، ويوصل إليها بالباخرة من أمينون في قلب استانبول ، أمام مسجدينى جامع ، إلى مكتبات أخرى ضمت إلى المكتبة السليمانية ، وتعد هذه المكتبة أضخم مكتبات استانبول ، وقد أمر بإنشائها السلطان سليمان القانوني – أو المشّرع – ابن السلطان سليم الأول فاتح مصر ، وقد قام بتصميمها وبنائها «معمار سنان» وهو ذلك المعماري الشهير الذي بنى عشرات المساجد والتكايا والحمامات وقد انتهى من بناء المكتبة سنة ٩٦٤هـ – ١٥٥٧م ، وتقع هذه المكتبة العريقة بالقرب من مسجد السليمانية ، وتتوسط المكتبة حديقة صغيرة مزدانة بالورد والزنابق ، وتظللها شجرة صنوبر ضخمة تغطى الحديقة كلها بأغصانها المتناسقة . وفي جانب من المكتبة – وفي القسم الثاني منها – كتبت لوحة تقول : «أنشأ هذه المكتبة المعمار سنان بين سنوات ١٥٤٩ – ١٥٥٧ ميلادى ، بأمر السلطان سليمان القانوني ابن السلطان سليم الأول ، يوجد اليوم في مكتبتنا ١٠١ خزانة كتب ، أما المخطوطات الموجودة في مكتبتنا فهي ٦٣٩٤٧ مجلدا ، والمطبوع ٣٨٥٠٠ مجلدا فقط ، منها : المخطوطات التركية ١١٤٥١ مجلدا – المخطوطات العربية ٤٨٨٥٤ مجلدا – المخطوطات الفارسية ٣٦٤١ مجلدا ، ويبلغ مجموع عدد المخطوطات الموجودة في المكتبة أكثر من ١٠٠ر١٠٠ كتاب ورسالة» .

وتضم المكتبة أقسام التصوير والفهرسة ، وتعقيم المخطوطات وترميمها وتجليدها ، ثم تسجيلها على الكمبيوتر ، ويشيع في هذه المكتبة جو من السكينة والجلال لم أحسهما في مكتبة من مكتبات المخطوطات شرقا وغربا .

أما الخدمة المكتبية في هذه المكتبة فشيء معجب حقاً ، تطلب المخطوط فتأتيك به الموظفة تحمله بين يديها في حنو وحدب وإشفاق ، وكأنه وليد طال انتظاره، على ما قال ساعدة بن جُؤَيَّة الهذلي :

أتاها على هون وقد شاب رأسها

وحين تصدى للهوان عشيرها

ثم تظل عيناها معلّقة بك وبه ، فإذا رأت منك جفاء مع المخطوط ، كاتّكاءٍ بيدك عليه ، أو بَلٍّ إصبعك لتقليب صفحة من صفحاته ، أو اتخاذه سناداً لما تكتب ،

ردَّك عن ذلك رداً جميلا ، ولهذا ترى كثيراً من المخطوطات محتفظة برونقها وجمالها ، وكأنها خرجت من يد النساخ للتو واللحظة .

وتوشك هذه المكتبة السليمانية أن تكون المكتبة المركزية العامة للمخطوطات ، فإن وزارة الثقافة التركية تعمل على نقل المخطوطات إليها من الأقاليم البعيدة لتكون قريبة من الباحثين .

★ ★ ★

وإذا كانت تركيا تملك أكبر قدر من المخطوطات في العالم ، فإنها كذلك تحتفظ بأكبر قدر من النفائس والنوادر ، وللنفاسة والندرة في عالم المخطوطات معايير كثيرة، من أبرزها وأظهرها قدم المخطوط ، ونجد في مخطوطات تركيا كتباً ذوات عدد يرجع تاريخ نسخها إلى القرون المتقدمة : كالثالث والرابع والخامس والسادس ، فضلاً عن المخطوطات التي كتبت بأقلام مؤلفيها أو تلاميذهم، والمخطوطات الفريدة التي لا تُعرف لها نسخ أخرى في مكتبات العالم ، كل ذلك وأشباهه مما تغص به مكتبات تركيا ، فمن نماذج القدم والعتاقة هذه المخطوطات :

المأثور عن أبي العميثل الأعرابي ، في اللغة ، المتوفى سنة ٢٤٠ ، نُسخ سنة ٢٨٠، بخط نسخ مشكول بالحركات شكلا جيداً وهذا يفيد في معرفة تاريخ الشكل بالحركات ، كيف كان في ذلك الزمان المتقدم ؟ والنسخة بمكتبة ولي الدين باستانبول - دستور ثابت بن قُرَّة المتوفى سنة ٢٨٨ - وهو كتاب في آلات الساعات - نسخ سنة ٣٧٠ ، مكتبة كوبريلي باستانبول - رسالة مدح الكتب والحث على جمعها للجاحظ المتوفى سنة ٢٥٥ ، بخط علي بن البواب الخطاط الشهير ، سنة ٤١٣ ، متحف الأوقاف باستانبول - تحديد نهايات الأماكن لتصحيح مسافات المساكن ، للبيروني المتوفى سنة ٤٤٠ ، نسخ سنة ٤١٦ ، (أي في حياة المؤلف) مكتبة الفاتح باستانبول - شرح كتاب أرسطو طاليس للفارابي المتوفى سنة ٣٢٩، نسخ سنة ٥٣٨ - مكتبة أحمد الثالث باستانبول .

وليست النفائس والنوادر في مكتبات استانبول وحدها ، بل هي في سائر المكتبات التركية ، ومما رأيته بعيني من تلك النفائس : نسخة من «جامع معمر بن راشد» المتوفى سنة ١٥٣ ، وكتابه هذا في الحديث ، وهو أقدم من «موطأ مالك» كما يقول ابن سمرة في طبقات فقهاء اليمن ص٦٦ ، والنسخة بخط مغربي على رقّ غزال سنة ٣٦٤ ، وقد رأيتها في مجموعة إسماعيل صائب أفندي بمكتبة كلية الآداب بجامعة أنقرة ، ومجموعة إسماعيل صائب هذه تحتوي على كثير من النفائس ، لأن جامعها هذا كان يعمل مديراً لمكتبة بايزيد باستانبول ، وقد جمع هذه المكتبة لنفسه خاصة لتحمل اسمه ، وقد ظلت هذه المجموعة حبيسة الصناديق نحو عشرين

عاماً ، ولهذا لم تتضمنها موسوعة «تاريخ الأدب العربي» للمستشرق الألماني كارل بروكلمان ، ومن نفائسها أيضا كتاب «حلية الفقهاء» لابن فارس المتوفى سنة ٣٩٥ ، نسخ سنة ٥٨٩ ، وترجع نفاسة هذه النسخة – مع قدم نسخها – إلى أنها النسخة الوحيدة في العالم إلى الآن . ومنها كانت نشرة الدكتور عبدالله بن عبدالمحسن التركي وزير الدعوة والشئون الإسلامية بالمملكة العربية السعودية .

ومن النفائس التي رأيتها بمكتبة قونية : نسخة من «المقصور والممدود» لابن ولاد المتوفى سن ٣٣٢ ، ونسخة من «المذكر والمؤنث» لأبي حاتم السجستاني المتوفى سنة ٢٥٥ ، وكلتا النسختين من خطوط القرن الرابع . ثم رأيت في قونية أيضا نسخة من «غريب القرآن» لابن قتيبة المتوفى سنة ٢٧٦ ، من خطوط القرن السادس ، ولم ير أستاذنا السيد أحمد صقر رحمه الله ، هذه النسخة عند نشره للكتاب سنة ١٣٧٨هـ = ١٩٥٨ ، وإنما كان تعويله على نسخة وحيدة كانت صورتها في مكتبة المحدث الجليل الشيخ أحمد محمد شاكر .

ومما رأيت من النفائس مجموعة شعرية كتبت بخط نسخي جيد من خطوط القرن السابع تقديرا ، تشتمل على أشعار بشر بن أبي خازم ، وتميم بن أُبَيّ بن مقبل ، والطرماح بن حكيم . وهذه المجموعة الشعرية محفوظة في مدينة صغيرة تسمى «جوروم» تقع في هضاب الأناضول في الوسط ، إلى الشمال الشرقي من أنقرة العاصمة ، وعن هذه المجموعة نشر الدكتور عزّة حسن دواوين الشعراء الثلاثة بدمشق .

أما نسخ المصاحف القرآنية ، والمخطوطات الخزائنية – وهي التي جودت وزينت لخزائن السلاطين والملوك ، والمخطوطات المزوّقة ، فشيء بالغ الكثرة .

وهكذا امتلأت خزائن تركيا بالمخطوطات العربية التي تنافس في جمعها السلاطين والوزراء ومشايخ الإسلام ، ووجهاء الناس حتى النساء ، جمعوها من البلاد التي طالها حكمهم ثم حفظوها وصانوها ، كما يصون كرام الأبناء ودائع الآباء ، وهذا الحفظ وتلك الصيانة قامت بهما تركيا العثمانية (الخلافة) وتركيا العلمانية (الجمهورية) سواء بسواء .

★ ★ ★

وليس فضل الأتراك العثمانيين على اللسان العربي ، وعلى الفكر العربي محصوراً فقط في هذا القدر الكبير من المخطوطات العربية التي جمعوها وحفظوها ، بل قد جاءنا منهم خير كثير : جاءنا منهم أعظم وأجمع ماكتب في علم أحوال الكتب ، أو قوائم الكتب (الببليوجرافيا العربية) وهو كتاب «كشف الظنون عن أسامي الكتب والفنون» لمصطفى بن عبدالله ، كاتب چلبي ، المعروف بالحاج خليفة، أو : حاجي خليفة، المولود باستانبول سنة ١٠١٧هـ =

١٦٠٩م، والمتوفى بها سنة ١٠٦٧هـ = ١٦٥٧م ، وهذا الكتاب «من أوسع ما بأيدى الباحثين اليوم من الكتب المؤلفة فى استقصاء ذكر المؤلفات فى الإسلام ، وأنفعها فى بيان أحوال الكتب» كما يقول بلديُّه العلامة الشيخ محمد زاهد الكوثرى، وكيل المشيخة الإسلامية فى دار الخلافة العثمانية ، والمتوفى بمصر سنة ١٣٧١هـ - فى كتابه مقالات الكوثرى ص٤٧٨ .

ولهذا الكتاب - كشف الظنون - قيمة كبرى فى رصد حركة التأليف العربى ، وتتبع مساره منذ بداية التدوين حتى القرن الحادى عشر الهجرى . ومادته العلمية غريزة جداً ، فقد ذكر نحو (٢٠٠) علم وفن، ونحو (١٥٠٠٠) عنوان كتاب ، ونحو (٩٥٠٠) مؤلِّف .

وجاء نا من تركيا العثمانية أيضاً «الخط العربى» هذا الفن الجميل الذى يعد معلماً بارزاً من معالم الإبداع الفنى عند المسلمين ، وخاصية حضارية ينفردون بها عن سائر الشعوب .

وإذا كان تاريخنا يذكر أسماء عظيمة كان لها أثر واضح فى تزيين الخط العربى والابداع فيه ، مثل ابن مقلة الوزير الشاعر البغدادى (٣٢٨هـ) ، وابن البواب البغدادى (٤٢٣هـ) ، وقد هذّب طريقة ابن مقلة ، وكساها رونقا وبهاء ، ويقال : إنه كتب القرآن بيده ٦٤ مرة ، ومن حسن حظنا أن يبقى من خطه أثر ، وهو «شعر سلامة بن جندل» فى مخطوطة كتبها بقلمه الجميل سنة ٤٠٨ ، وهى محفوظة بمكتبة بغداد كشك باستانبول . وكذلك بقى من خطه رسالة «مدح الكتب والحثّ على جمعها» للجاحظ ، وقد ذكرتها من قبل ، وياقوت المستعصى الرومى (٦٨٩هـ) وآثار هذا الخطاط كثيرة، فى تركيا وفى غيرها، وبخاصة المصاحف الشريفة . وفى مكتبة السليمانية وحدها نسختان من المصحف الشريف بخطه . أقول : إذا كان تاريخنا قد سجل هذه الاسماء التى أبدعت وجوّدت فى الخط العربى ، فإن الخطاطين الأتراك العثمانيين قد ارتقوا بهذا الفن إلى أعلى درجاته، وتألقت أقلامهم وأبدعت تشكيلات هى الغاية والمنتهى ، وسيظل تاريخ الخط العربى يردد أسماء الخطاطين الأتراك العثمانيين ، مثل الحافظ عثمان ، وأسعد اليسارى، وقاضى العسكر مصطفى عزت، والحاج حسن رضا ، وحقى ، وسامى ، وخلوصى ، وعثمان أوزجاى ، ومحمد أوزجاى ، وقنوى ، وحمد الله المعروف بابن الشيخ ، وأحمد كامل المعروف برئيس الخطاطين ، ثم العلم الكبير : حامد الآمدى . وقلَّ أن تجد واحداً من هؤلاء لم يكتب المصحف الشريف ، فكان كلام ربنا عز وجل مجلى فن هولاء الخطاطين ، الذين أجادوا فى كتابته غاية الإجادة ، ما بين كتابته كاملاً ، أو كتابة بعض آياته ، حتى قيل بحق : «إن القرآن الكريم نزل بمكة ، وقرئ فى مصر ، وكتب فى استانبول» .

وهذا الابداع فى فن الخط العربى ليس فى المسطور بين دفّتى كتاب فقط ،

فأنت تراه أيضا يزين جدران وقباب المساجد كلها صغارها وكبارها ، بأقلام الخط الستة المعروفة ، وإن كان أكثر ما رأيته فى المساجد : الثلث والفارسى ، ومن المألوف فى أكثر المساجد أن تجد مكتوبا : الله جل جلاله - محمد صلى الله عليه وسلم - الصحابة الأربعة الراشدين - ثم الحسن والحسين ، وأحيانا الصحابة الستة الذين تتم بهم العشرة المبشرون بالجنة ، ومن أنفس وأبدع المجموعات الخطية ما رأيته فى مسجد السليمانية باستانبول، والمسجد الكبير بمدينة بورسة، وهو المسمى «أولوجامع» ، فالخطوط فى هذين المسجدين من وراء الوصف ، فهى من الأشياء التى تحيط بها المعرفة ولا تدركها الصفة . ولست أدرى كيف كتب ذلك الخطاط التركى العظيم تلك القافات الثلاث فى مدخل جامع بورسة ، فقد كتب بها سورة العلق : «قافات كبيرة جداً على شكل دائرة ثم وصل بينها ببقية الآيات بالحرف الصغير ، وكذلك صنع بالسينات التى تنتهى بها سورة الناس .

لفظ الجلالة

على أن أبدع وأجمل ما رأيته فى كتابة لفظ الجلالة «الله» و«محمد» صلى صلى الله عليه وسلم ، ما رأيته فى صدر كنيسة آيا صوفيا التى حولها السلطان محمد الفاتح إلى مسجد ، وقد تحول هذا المسجد الآن إلى متحف ، وقد راعنى ما رأيت : قباب عالية تملؤها خطوط تخطف البصر بجمالها ، وعلى جانبى الكنيسة آثار إسلامية مستحدثة على هذا البناء الكنسى العتيق ، وفى مكان الهيكل وبعيداً عنه شيئاً ما أقيم المحراب ، وعلى يمينه نهض منبر فخم ، ومن وراء المحراب بقيت صورة السيدة مريم عليها السلام فى صدر الهيكل . ومما يلفت النظر فى هذه الكنيسة أن الآثار المسيحية لم تمح فبقيت كما هى ، ثم استحدثت أبنية إسلامية كبعض الإيوانات ومصلى النساء .

ومما ينبغى التنبه له والتنبيه عليه أن عناية الأتراك بالخط العربى وتحسينه لازالت باقية إلى الآن فى تركيا (الجمهورية) ، ومن الخطاطين الأتراك المعاصرين : داوبكتاش ، وإيدين أركون، وعثمان أونال ، وأفضل الدين قيلج ، وعلى طوى، وتحسين قورت ، وأى تكين أرسلان، ثم يتقدم هؤلاء كبيرهم الأستاذ حسن جلبى خطاط الجمهورية . فما برح النهر يجرى متدفقا زخّارا .

ورغم أن لمصر تاريخاً فى فن الخط العربى ، فإن أثر الخطاطين الأتراك كان واضحاً على هذا الفن فى مصر ، وحين أنشأ الملك فؤاد مدرسة تحسين الخطوط الملكية عام ١٩٢٠م - ومقرها كان ولايزال بمدرسة خليل أغا الثانوية بشارع الجيش - قام بالتدريس فيها الخطاطون المصريون المعرفون آنذاك : الشيخ على بدوى ، والشيخ محمود رضوان ، ومحمد إبراهيم ، ونجيب هواوينى ، وهو سورى عاش ومات فى القاهرة ، ثم استقدم الملك

فؤاد خطاطا تركيا كبيراً من استانبول هو «الشيخ محمد عبدالعزيز الرفاعى» الذى يوقع أحياناً على خطوطه باسم «عزيز» ، وهو من تلاميذ الخطاط الحاج أحمد العارف الفلبوى ، والخطاط حسن حسنى القرين آبادى ، كما ذكر هو فى بعض لوحاته .

وقد أثر الشيخ عبدالعزيز تأثيراً كبيراً فى تلاميذه الذين درسوا على يديه وارتقى به فن الخط فى مصر ارتقاءً عظيما ، وظهر أثره واضحاً فى سيد إبراهيم ، وبخاصة فى خط الثلث ، وفى محمد حسنى ، وبخاصة فى الخط الفارسى .

وقد جمعت روائع الشيخ عبدالعزيز الرفاعى فى كتالوج فخم جدا ، وفيه ترجمة لحياته وأسفاره ، وطبع هذا الكتالوج فى استانبول سنة ١٩٨٨، وفيه صورة رسالة بخط الشيخ عبد العزيز الرفاعى إلى شيخ الأزهر ، وهى وثيقة مفيدة ، فى تاريخ نزوله بمصر ومحل إقامته . وهذه صورة الوثيقة : «حضرة صاحب الفضيلة شيخ الجامع الأزهر الشريف . أعرض لفضيلتكم أنى دعيت من الأستانة العلية لكتابة المصحف الشريف لحضرة مولانا صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول ، وقد كتبت نموذجاً لطلبة المدارس والأزهر ، وها هو مرفق طيه للأطلاع عليه حتى إذا حاز القبول يكرم باعتماد تقريره بالأزهر ، وإنى مستعد لتقديم الكمية اللازمة . وفى الختام تفضلوا بقبول فائق الاحترام – فى ٢٢ أكتوبر سنة ١٩٢٣الشيخ محمد عبدالعزيز الرفاعى الخطاط المقيم بتكيّة المولوية بشارع السيوفية نمره ٣١ قسم الخليفة» .

توفى الشيخ عبدالعزيز ودفن فى استانبول يوم ١٦ من أغسطس سنة ١٩٣٤م وقبره قريب من مسجد الفاتح . وهو أكبر خطاط فى هذا الجيل ، وترى نماذج من خطه فى عنوانات بعض الكتب التى طبعتها دار الكتب المصرية : الأغانى للأصفهانى ، وذيل الأمالى والنوادر لأبى على القالى ، والجامع لأحكام القرآن للقرطبى ، ونهاية الأرب للنويرى . ورأيت فى الستينات بعض لوحات بخطه فى قاعة المعارض بدار الكتب المصرية ، لا أعرف مصيرها الآن .

وإلى جانب هذا الكتالوج الخاص بالشيخ عبدالعزيز الرفاعى ، رأينا عملاً رائعاً آخر أصدره مركز الأبحاث للتاريخ والفنون والثقافة الإسلامية ، التابع لمنظمة المؤتمر الإسلامى ، وهو كتاب «فن الخط» وهو ثمرة جهود طويلة قام بها فريق من الباحثين تحت إشراف الدكتور أكمل الدين إحسان أوغلى مدير عام المركز ، ويضم الكتاب مقدمة تاريخية حول نشأة الكتابة العربية وأعلام الخطاطين القدامى ، إلى أن يصل إلى الخطاطين العثمانيين ، ويحتوى الكتاب على ١٩٢ لوحة وصورة بالألوان .

ويقوم هذا المركز بجهود عظيمة فى مجال التاريخ والفنون الإسلامية ، ومن صور نشاطه إقامة مسابقات دولية لفن

الخط العربي توجه منها الدعوة لخطاطي العالم كله . ومن إصداراته الجيدة «فهرس مخطوطات مكتبة كوبريلي» في ثلاثة مجلدات ضخام - استانبول ١٤٠٦هـ = ١٩٨٦م ، وفهرس مخطوطات الطب الإسلامي باللغات العربية والتركية والفارسية في مكتبات تركيا ، ١٤٠٤ هـ = ١٩٨٤م ويدير هذا المركز ويوجه نشاطه شاب مثقف ، يتوقد ذكاء ، ويتوهج حماسة، هو الأستاذ الدكتور «أكمل الدين إحسان أوغلي» وهو تركي ، ولكنه مصري المولد والنشأة والتعليم ، تخرج في كلية العلوم ، وعين معيداً بجامعة الأزهر في أول سني التطوير ، ثم أكمل تعليمه العالي في لندن ، وعاد إلى موطنه تركيا . ووالده الشيخ «إحسان» من علماء الأتراك الذين نزلوا مصر، واتخذوها داراً ومقاماً، وكان رئيس قسم الفهارس الشرقية بدار الكتب المصرية إلى أوائل الستينات . رأيته شيخاً مهيب الطلعة ، حسن السمت ، صالح الوجه .

★ ★ ★

ولا يبقى إلا أن نلتفت التفاتة جادة إلى تجربة الأتراك في حفظ المخطوطات وصيانتها ، وأن ننقلها إلى ديارنا ، فالحكمة ضالة المؤمن يأخذها أنى وجدها، وكذلك ينبغي أن نستفيد من جهودهم في فن الخط العربي ، جمعاً لروائعه ونشراً لها ، وإني أدعو ورثة الخطاطين المصريين الكبار ، من أمثال سيد إبراهيم ومحمد حسني ومحمد إبراهيم ويوسف أحمد ، والخطاطين الأحياء أمثال محمد عبدالقادر وحسين أمين ، ومن إليهما ، أدعو هؤلاء جميعا إلى جمع مالديهم من خطوط ، ونشرها بين دفتي كتاب يحفظها ، أثراً يبقى ونموذجاً يحتذى ، بل إننا لو جمعنا فقط عنوانات الكتب التي خطها سيد إبراهيم ومحمد حسني لأظهرنا كنزاً من الفن العالي ، ولأحيينا تاريخاً عزيزا كاد يضيع بتأثير الكمبيوتر وتشكيلاته المستحدثة التي لاتقوم على قواعد ، ولاتستند إلى أصول ، كما ذكر الأستاذ حامد العويضي في مقالته الجيدة «جماليات الخط العربي أمام مخاطر الكمبيوتر» - عدد أكتوبر الماضي من الهلال .

والحق أن هذا الذي نراه من الكمبيوتر الآن من تخليط واضطراب إنما سبقه ومهد له ، وأغرى به ما قام به بعض الرسامين وخريجي الفنون الجميلة منذ زمن ، من اللعب بقواعد الخط العربي وتجاوزها ، في هذه الخطوط الصاعدة والهابطة ، والمنتصبة والمضطجعة ، وقد قالوا وقتها : إنه الخط الحرّ ، على مثال الشعر الحر ، وكلها فتن ومصائب يأخذ بعضها برقاب بعض ، ولا نتنبه لها في بدايتها ونتركها حتى تعظم ويتطاير شررها ، على ما قال الحارث بن وَعْلة الذهلي :

والقول تَحْقِرُهُ وقد يَنْمِي
وبالله نستدفع البلايا .